١١ - مناهج الإصلاح (٢)

٢٤/ ٧/ ١٤١٩هـ

إنَّ الحَمْدَ لله... أَمَّا بَعْدُ:

فَمَعاشِرَ المُسلِمينَ:

تَقَدَّمَ فِي الجُمُعَةِ الماضِيَةِ أَنَّ ضَعفَ شَوكَةِ الأُمَّةِ وَوَهنَها فِي قُلوبِ أَعدائِها، كانَ بِسَبَبِ بُعدِها عَنِ المَنهَجِ الصَّحيحِ الذِي سَنَّهُ لَها نَبِيُّها ﷺ، فَرَّطَت كَثيرٌ مِن مُجتَمَعاتِ المُسلِمينَ فِي السَّيرِ عَلى خُطى المَنهَجِ النَّبَوِيِّ، فَكانَ مِن جَرَّاءِ ذَلِكَ نُشوءُ البِدَعِ وسُرعَةُ تَكاثُرِها ونُمُوِّها، بَل وإِخمادِ السُّنَنِ وإِماتَتِها، فَراجَتِ البِدَعُ العَقَدِيَّةُ والتَعَبُّدِيَّةُ بِشَتَّى الأَنواعِ، فَكانَت لَها سُوقٌ رائِجَةٌ فِي عَقائِدِ النَّاسِ وعِباداتِهِم ومَساجِدِهِم.

ومَع هَذا كُلِّهِ كانَ لِلحَقِّ صَوتٌ يُنادِي، فَالخَيرُ باقٍ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

إِنَّ دُعاةَ الإِصلاحِ كَثيرٌ، إِلاَّ أَنَّ المِيزانَ الذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ الصَّوابُ مِنَ الخَطَأِ، هُوَ عَرضُ أَساليبِ الإِصلاحِ عَلى نُصُوصِ الكِتابِ وَالسُّنَّةِ.

وَالشَّرعُ مِيزانُ الأُمورِ كُلِّهَا وشَاهِدٌ لِفَرعِها وأَصلِهَا

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

لَمَّا كانَت وَظيفَةُ الإِصلاحِ هِيَ الوَظِيفَةَ التِي قامَ بِها الرُّسُلُ، كَانَ لِزاماً عَلى مَن أَرادَ الإِصلاَحَ أَن يَجعَلَ نَصبَ عَينَيهِ {لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [سورة الأحزاب: ٢١]. {قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي} [سورة يوسف: ١٠٨]، فَسَبيلُ الإِصلاَحِ مُتَّبَعٌ لاَ مُبتَدَعٌ.

قَالَ الإِمامُ البَربَهارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (واعلَم رَحِمَكَ اللهُ أَنَّ الدِّينَ إِنَّما جاءَ مِن قِبَلِ اللهِ تَبارَكَ وَتَعَالَى، لَم يُوضَع عَلى عُقُولِ الرِّجالِ وآرائِهِم، وعِلمُهُ عِندَ اللهِ

وعِندَ رَسُولِهِ ﷺ، فَلاَ تَتَّبِع شَيئاً بِهَواكَ، فَتَمرُقُ مِنَ الدِّينِ، فَتَخرجَ مِنَ الإِسلامِ، فَإِنَّهُ لاَ حُجَّةَ لَكَ، فَقَد بَيَّنَ رَسُولُ اِلله ﷺ لأُمَّتِهِ السُّنَّةَ وأَوضَحَها لأَصحابِهِ، وَهُمُ الجَماعَةُ، وهُمُ السَّوادُ الأعظَمُ. والسَّوادُ الأَعظَمُ: الحَقُّ وأَهلُهُ).

وَقالَ رَحِمَهُ اُلله تَعَالَى أَيضاً: (فَانظُر -رَحِمَكَ اُلله- كُلَّ مَن سَمِعتَ كَلامَهُ مِن أَهلِ زَمانِكَ خاصَّةً، فَلاَ تَعجَلَنَّ، وَلاَ تَدخُلنَّ فِي شَيءٍ مِنهُ حَتَّى تَسأَلَ وتَنظُرَ: هَل تَكَلَّمَ بِهِ أَصحابُ رَسُولِ اِلله ﷺ أَو أَحَدٌ مِنَ العُلَماءِ، فإِن وَجَدتَ فِيه أَثَراً عَنهُم فَتَمَسَّك بِهِ وَلاَ تُجاوِزهُ لِشَيءٍ، وَلاَ تَختَر عَلَيهِ شَيئاً، فَتَسقُطَ فِي النَّارِ).

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

وعَوداً عَلى بَدءٍ يُقالُ: إِنَّ الطَّرِيقَ الأَمثلَ، بَل وَالأَوحَدَ، الذِي يَجِبُ أَن يَسلُكَهُ مَن أَرادَ الإِصلاَحَ لِنَفسِهِ ومُجتَمَعِهِ، هُوَ: أَن يَسيرَ عَلى وَفقِ ما تَقتَضيهِ الأَدِلَّةُ الشَّرعِيَّةُ، كَما كانَ عَلَيهِ الرَّعيلُ الأَوَّلُ مِنَ الصَّحابَةِ والتَّابِعينَ، ومَن نَحا نحوَهُم ونَهَجَ سَبيلَهُم مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحينَ وأَئِمَّةِ الدِّينِ.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

لَمَّا كانَت وَظيفَةُ الإِصلاَحِ مِن أَشرَفِ الوَظائِفِ وَأَعظَمِها قَدراً، أَصبَحَت مُشاعَةً لَدى الكَثيرِ مِنَ النَّاسِ، فَقامَ آحادٌ مِنَ النَّاسِ وجَماعاتٌ، فَسَلَكُوا سَبيلَ الإِصلاَحِ. إِلاَّ أَنَّ كَثيراً مِن أُولَئِكَ جَنَحَت بِهِم آراؤُهُم، فَحادُوا عَن طَرِيقِ الصَّوابِ. بَل إِنَّ المُصيبَةَ وَالطَّامَةَ أَنَّ جَماعاتٍ مِمَّن زَعَمُوا الإِصلاَحَ، ضَرَبُوا بِالأَدِلَّةِ الشَّرعِيَّةِ عُرضَ الحائِطِ، وَلَم يُلقُوا لِمَفهومِها بالاً، بَل ضَلُّوا وَأَضَلُّوا كَثيراً عَن سَواءِ السَّبيلِ. وقَد تَلَطَّخَت صَفَحاتُ التَّارِيخِ بِسيرةِ الخَوارِجِ، الذينَ استَباحُوا الدِّماءَ، وأَحدَثُوا الفَوضَى والتَّصَدُّعَ فِي كِيانِ مُجتَمَعِ الإِسْلامِ، بِقَصدِ الإِصلاَحِ زَعَمُوا.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

وَلَمَّا كانَت هَذِهِ الأُمَّةُ أُمَّةَ الخَيرِ والفَلاحِ، ظَهَرَ فِيها المُصلِحونَ النَّاصِحونَ الأَخيارُ، واجتَهَدوا فِي نُصحِهِم لِمُجتَمَعاتِهِم وأُمَمِهِم، قامَت تِلكَ الثُّلَّةُ المُبارَكَةُ، واستَفرَغُوا جُهدَهُم ووُسعَهُم فِي إزالَةِ ما يُكَدِّرُ صَفاءَ الإِسْلامِ، فَكَتَبَت أَقلامُهُم، ونَطَقَت أَلسِنَتُهُم، وشَهِدَت مَحاريبُهُم ومَنابِرُهُم بِصادِقِ نُصحِهِم وتَحذيرِهِم لِمُجتَمعاتِهِم.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

ونَظَراً لاتِّساعِ رُقعَةِ بِلادِ الإِسْلامِ، فَقَد كَثُرَت تِلكَ الدَّعَواتُ الإِصلاَحِيَّةُ، وكانَ لِكُلِّ دَعوَةٍ أَتباعٌ ومُناصِرونَ ومُؤَيِّدُونَ.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

وَمَعَ اجتِهادِ أُولَئِكَ المُصلِحينَ، وحِرصِهِم عَلى نَشرِ الخَيرِ فِي أَوساطِ مُجتَمَعاتِهِم، عَن طَريقِ دَعَواتِهِم الإِصلاَحِيَّةِ، جَنَحَت بَعضُ تِلكَ الدَّعَواتِ الإِصلاَحِيَّةِ عَن طَريقِ الصَّوابِ فِي بَعضِ أَهدافِها وَسَعيِها، وكانَ سَبَبُ ذَلِكَ: الاعتِمادُ عَلى الأَفهامِ الخَاصَّةِ لِمُنَظِّريها، دُونَ الرُّجوعِ إِلى ما كانَ عَلَيهِ سَلَفُ الأُمَّةِ، نَاهِيكَ عَن قُصورِ بَعضِ أَربابِ تِلكَ الدَّعَواتِ فِي جانِبِ العِلمِ الشَّرعِيِّ.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

مِمَّا عُلِمَ وتَقَرَّرَ: أَنَّ ذِكرَ الأَخطاءِ لَيسَ هَضماً لِلإِيجابِياتِ بَل هُوَ تَنبيهٌ وتَقويمٌ؛ لِيكونَ المَرءُ عَلى بَيِّنَةٍ مِن دينِهِ.

شاهِدُ المَقالِ:

أَنَّ بعضَ تِلكَ المَناهِجِ الإِصلاَحِيَّةِ داخِلَها خَللٌ واضِحٌ، فَمِن ذَلِكَ مَثَلاً: أَنَّ بَعضَ المَناهِجِ غَلَّبَت جانِبَ التَعَبُّدِ والرَّقائِقِ، وكانَ ذَلِكَ أَبرَزَ ما فِي دَعوَتِهِم، بَل كانَ جُلُّ اهتِمامِهِم يَنصَبُّ عَلى تَربِيَةِ النُّفُوسِ، وَذَلِكَ عَلى الإِكثارِ مِنَ التَّعَبُّدِ والتَّزَهُّدِ والضَّربِ فِي الأَرضِ، فَفَرَّطُوا عَلى حِسابِ ذَلِكَ فِي أُمورٍ عَقَدِيَّةٍ، لَم يَكُن لَها

نِصابٌ فِي دَعوَتِهم، نَاهِيكَ عَن عَدَمِ التَّركيزِ عَلى الانطِلاقِ مِن مَبْدأِ العِلمِ الشَّرعِيِّ، فَدَخَلت عَلَيهِمُ البِدَعُ والأَخطاءُ مِن أَبوابٍ كَثيرةٍ، مِمَّا جَعَلَ كَثيراً مِنَ المُنتَسِبينَ لِذَلِكَ المَنهَجِ يَعتَقِدونَ صِحَّةَ مَا هُم عَلَيهِ، فَضلاً عَن دَعوَتِهِم إِلَيهِ، ومُدافَعَتِهِم عَنهُ. وهَذا مِمَّا لا شَكَّ وَلاَ رَيبَ فِيه أَنَّهُ نَتيجَةُ البُعدِ عَنِ الهَديِ النَّبَوِيِّ عَلى صَاحِبِهِ أَتَمُّ الصَّلاةِ والتَّسلِيمِ. وَلِذا يُوجَدُ فِي كُتُبِهِم ورَسائِلِهِم مَا لا يَمُتُّ إِلى السُّنَّةِ بِصِلَةٍ، بَل هُو إِلى البِدعَةِ أَقرَبُ.

اَللهَ نَسأَلُ أَن يَهدِيَهُم سَواءَ السَّبِيلِ.

اَللَّهُمَّ أَرِنا الحَقَّ حَقّاً وارزُقنا اتِّباعَهُ، وأَرِنا الباطِلَ باطِلاً وارزُقنا اجتِنابَهُ، ولاَ تَجعَلْهُ مُلتَبِساً عَلَينا فَنَضِلَّ...

الخطبة الثانية

{الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ * مَـلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [سورة الفاتحة: ٢-٤].

{الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [سورة الأنعام: ١].

{ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا} [سورة الكهف: ١].

{ الْحَمْدُ لِلهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة فاطر: ١].

مَعاشِرَ المُسلِمِينَ:

وعَوداً عَلى بَيانِ خَلَلٍ بعضِ المَناهِجِ الدَّعَوِيَّةِ، يُقالُ: لَقَد جَنحَت بعضُ المَناهِجِ الإِصلاَحِيَّةِ إِلى قَضِيَّةِ الكَمِّ دُونَ الكَيفِ، فَسَعَت جاهِدةً إِلى تَكثيرِ سَوادِها، دُونَ تَمحيصٍ ونَظَرٍ دَقيقٍ.

فَتَرَتَّبَ مِن جَرَّاءِ ذَلِكَ غَضُّ الطَّرفِ عَنِ انحِرافاتٍ عَقديةٍ وأُمورٍ بِدعِيَّةٍ، زَعماً مِنهم أَنَّ إِثارَةَ تِلكَ الأُمورِ والنَّكيرَ عَلَيها يُسَبِّبُ الفُرقَةَ والتَناحُرَ، ونَحنُ بِحاجَةٍ إِلى التكاتُفِ والتَّعاضُدِ. هَذا مُقتَضى مَنهَجِهِم، وقَد تَرَتَّبَ مِن جَرَّاءِ ذَلِكَ تَمييعُ كَثيرٍ مِنَ القَضايا العَقديةِ، وغَضُّ الطَّرفِ عَن بَعضِ أَصحابِ الانحِرافِ العَقَدِيِّ.

كَما جَنَحَت مَناهِجُ أُخرى إِلى الاهتِمامِ بِدراسَةِ واقِعِ الأُمَّةِ وتَشخِيصِ الخَطَرِ المُحدِقِ بِها.

وهَذا مِمَّا لا شَكَّ فِيهِ مَطلَبٌ شَرعِيٌّ، إِلاَّ أَنَّ المَأخَذَ هُوَ تَغليبُ هَذا الجانِبِ عَلى حِسابِ جَوانِبَ أُخرَى أَهَمَّ مِنهُ، وكَذلِكَ عِلاجُ بعضِ تِلكَ القَضايا الواقِعِيةِ بِعَواطِفَ

جَيَّاشَةٍ عَرِيَّةٍ مِنَ العِلمِ الشَّرعِيِّ، مِمَّا يَتَرَتَّبُ عَلَيهِ إِضاعَةُ الجُهودِ، بَل قَد تَكونُ تِلكَ العَواطِفُ سَبَباً لِوُلُوجِ الإِثمِ، بِسَببِ الإِعراضِ عَنِ النُّصُوصِ الشَّرعِيَّةِ ومُقتَضاها فِي عِلاجِ تِلكَ الوَقائِعِ. ويَشتَرِكُ عُمومُ هَؤلاءِ والذِينَ مِن قَبلِهِم فِي عَدَمِ العِنايَةِ بِتَوحيدِ الأُلوهِيَّةِ.

اَللهَ نَسأَلُ أَن يُبارِكَ فِي جُهودِ المُصلِحينَ، وأَن يَرُدَّ المُخطِئينَ إِلى الحَقِّ رَدّاً جَميلاً.

اللَّهُمَّ ارزُقنا حُبَّ السُّنَّةِ وأَهلِها، وارزُقنا بُغضَ البِدْعَةِ وأَهلِها.